بندقية الآغا

قصة بقلم صباح محيي الدين

خرجنا من لولية نريد الصيد في وادي الروج ، الا ان المطر دهمنا قبل ان نبدأ صيدنا ، فلجأنا الى كوخ في لحف الجبل ، يستعمله الفحامون مسكنا لهم ، حين يحرقون اخشاب شجر جبل الوسطاني ويجعلون منها فحما يبيعونه في المدن .

وكنا ثلاثة من الاصدقاء ، ومعنا دليل من لولية ، اسمه « ابو احمد »، صحبنا ليدلنا على افضل الامكنة لصيد الارانب في الوادي .

وجمع ابو احمد بعض الاعشاب والاغصان من حول الكوخ ، واشعل بها نارا تجمعنا حولها نستدفيء وننتظر ان يتوقف المطر .. ونقطع الوقت بالحديث . ومضت اكثر من ساعة ، وما زال المطر يقرع سقف الكوخ وجوانبه وينسج على الوادي الذي كنا نراه من خلال الباب برقعا من رذاذ الماء .

وقال ابو احمد :

ـ اذا سمح لي الافندية ، أقص عليهم بدوري قصة .

فقلنا بصوت واحد :

ـ وكيف لا نسمح .. تفضل يا ابو احمد ..

وقلنا في انفسنا :

ـ وما الضرر من قصة اخرى بعد كل ما حكيناه وسمعناه من قصص.

ومد ابو احمد يديه الى النار وعرضهما لها ، ثم فركهما كي يسري الدفء في ذراعيه وجسمه ثم قال :

ـ قصتي غريبة .. قد لا تصدقونها .. لاسيما وان بطلها ارنب . واي ارنب . كاني اراه امامي على بعد الزمن ..

واغمض ابو احمد عينيه كمن ينظر الى مشهد باطني :

ـ كأني اسمع امرأة عمي ـ رحمات الله عليها ـ وهي تصيح حين وضعته على السفرة والبخار يتصاعد منه : « يا ساتر يا رب ، ما أثقل هذا الارنب » . وحين حاول عمي ان يقطعه احس بمقاومة عنيفة تحت السكين ..

واخذ ابو احمد يضحك لذكرياته ثم قال :

ـ لا .. لا .. سأقف هنا .. لاني اذا اكملت قصتي قلتم اني اخترع.

وكلنا اسرعنا الى تبديد شكوكه ، واكدنا له اننا نصدق وسنصدق كل كلمة يقولها . فاعتدل ابو احمد في كرسيه ، وتابع حديثه مبتسما :

ـ اذن .. كما قلت لكم .. احس عمي تحت السكين بشيء يقاوم حدها في ضلوع الارنب ... فكبس عمي وضغط ففابت السكين ، وانبعجت اضلاع الارنب .. واذا بليرة .. بل عشر .. بل عشرين ليرة ذهبية تتراكض وتتدحرج وترتطم على الصينية !

وكدنا هنا ان نقول :

ـ قصتك لا تصدق يا ابو احمد !

الا اننا تذكرنا ما وعدنا به من تصديقه ، فما زدنا على ان قلنا :

ـ غريبة يا ابو احمد ... جد غريبة قصتك !

فاجاب :

ـ بالعكس .. ليس ابسط منها . اسمعوا تاليتها :

كان عمري انذاك اثني عشر عاما وكنت ارافق في ذلك اليوم المشهود عمر آغا والد مصطفى آغا ، صاحب بساتين الناعورة . وكان عمر آغا رجلا طيبا ، ولكن عقله من شغل يده ـ كما يقال عندنا ... وبخيلا كذلك .

وكان والدي مرابعا عنده . وحين فرغت من الذهاب الى الكتاب ـ اذ لم يكن في زمن العثمانلي مدرسة ابتدائية الا في ادلب ـ ادخلني والدي في خدمة الآغا الذي جعلني تابعا له ، احمل كنانته وانظف جزمته .. ويطعمني ويدفع اجرتي ملابس عتيقة .

ومن المعلوم ان عمر آغا كان غنيا ، فقد خلف لابنه مصطفى تنكتين من الليرات الذهبية . ولكنه كان يعيش وحيدا بعد ان ماتت زوجته . ولا يدخل احدا الى بيته .

وكل شهر كان الآغا يركب حصانه العجوز ويتوجه الى ادلب مجتازا هذا الجبل الواقف فوقنا ليرى صاحب الخان الذي ينزل لديه خضرة بستانية وفواكهها ويقبض منه الحساب .. والمدهش في الامر ، ان احدا مطلقا لم ير الآغا يعود بكيس نقود من ادلب حتى انا .. اذ انه كان يطلب الي الذهاب الى السوق لشراء بعض الحوائج بعد ان يكون قد استلم حسابه .. وحين اعود لا ارى أثرا للنقود .

فأين كان يضعها اذن ؟

وذات مساء ـ مساء ذلك اليوم ، يوم الارنب ، بعد ان قبض الآغا نقوده من صاحب الخان وارسلني الى السوق حسب المعتاد ، خرجنا من ادلب عائدين الى لولية . وكان الآغا راكبا حصانه العجوز ، يقوده بخطوات بطيئة ، وانا اتبعه على قدمي وعيناي لا تشبعان من النظر الى معدله العثماني الذي تزينه النقوش ، وهو معلق على كتفه تبرق عليه الشمس .

وكنت على صغر سني ، شغفا بالاسلحة النارية ، وكنت على استعداد للتضحية بأي شيء مقابل استعمال بندقية الآغا . ولكنه ما كان ليفارقها لحظة حتى كان الفلاحون يقولون ساخرين : « لا شك في انها تشاركه فراشه » !

وكنت سائرا وراء الحصان وانا أناجي نفسي قائلا :

ـ اذا لم استطع استعمال هذه البندقية ، فلعل الله يمن علي ـ على الاقل ـ بسماع زغردتها وهي تنطلق .. ولكن الآغا على ما يبدو لم يكن على رأيي .. حتى كدت اقتنع بأنه يخشى استعمال بندقيته .

وكنا ـ في سفراتنا ـ كثيرا ما نصادف الارانب في سهل الروج ، او درغلا او حجلة . وكان الآغا يحمل البندقية الى كتفه ويسددها الى الهدف ولكنه لا يطلق النار . وكنت اجهد نفسي في التساؤل ، فلا اجد في عقلي الفتي مبررا لهذا السلوك الغريب .

وكنا ، عادة ، ننتهي من سفرتنا ، ذهابا وايابا بين شروق الشمس وغروبها . الا ان حصان الاغا فقد احدى حدواته في هذه المرة التي اتحدث عنها ، فوجدنا نفسنا عند الغروب بالقرب من ملس ، في سفح جبل الوسطاني . وغابت الشمس وهبط الليل على السهل، وأناخ الجبل ظله على الوادي ، واخذت البوم تملأ الجو بزعيقها واغصان الشجر تهوم في الظلام ، فقرر الآغا ان الطريق الى لولية ، غير سالمة في الليل .

وكنت شديد الرغبة في العودة الى لولية ، والى حضن والدتي ، فقلت للآغا :

ـ ولكن يا آغا .. بندقيتك ..

فرد علي بحرد :

ـ اسكت يا ولد .. لقد رأينا حراميه يسرقون البنادق .

وقرر الآغا ان يتوقف في بيت عم لي كان يسكن في ملس ، وتربطه بالآغا صداقة واشغال قديمة . وكان عمي هذا يحب الصيد حتى العبادة.

ولم يكن عمي يملك سوى غرفة واحدة يعيش فيها مع زوجته ، فينامان في ركن ، ويطبخان ويستدفئان على مدفأة ضخمة مقابل الباب . ولضيق المكان نام الاغا على طراحة وانا على الارض قرب النار ، بعد ان تعشينا عشاء بسيطا ، حسب قدرة عمي .

وانا نومي خفيف منذ الصغر . وما مر الا قليل على منتصف الليل حتى احسست بحركة في الغرفة ففتحت عينا فرأيت عمي قد قام ، وتناول بندقيته واتجه نحو الباب . واذ مر الى جانبي رآني مفتح العينين ، فقال لي :

ـ يا علي .. ـ وهذا كان اسمي قبل ان اصبح ابو احمد ـ يا علي.. هل تريد ان اعلمك كيف تصطاد الارنب في جحره ..

وقطع ابو احمد سياق قصته ليقول لنا :

ـ بالله عليكم يا افندية .. أهذا سؤال يطرح على غلام في عمري وفي شغفي بأمور الصيد .. وانكى من ذلك ان الفرصة سنحت وليس عندي بندقية .. وعمي لا يملك سوى بندقيته العتيقة ...

واظن ان عمي رأى في وجهي وفي عيني شوقي الشديد لمرافقته فقال هامسا ..

ـ خذ بندقية الآغا ... فان ذلك سيذهب الصدأ عنها ... وسنحشوها من جديد .. ولن يعلم احد بما حدث ...

وكانت رغبتي شديدة .. والفرصة سانحة .. والاغا يشخر ... والبندقية تلمع على ضوء النار الخافتة كأنها تغمزني وتقول .. تعال .. لا تخف .. وسرنا ما يقرب ربع الساعة على الطريق في ضوء القمر ، ثم دخلنا حرشا ، واخذنا نصعد في هضبة منبسطة لا ينبت عليها سوى عشب قصير تملؤه زهور الخزامى .. وفجأة سمعت عمي يصيح بي :

ـ اوعى الارنب امامك ..

ولا شك في ان الارنب كان قد استيقظ لاقترابنا ، وسمعت الاعشاب تتحرك ثم رأيت خيال اذنين يمر امامي .. وخرجت طلقتانا معا ..

وصاح بي عمي وهو يلم الارنب :

« يا عطل .. لقد تسببت في موت سنديانة .. لقد اصابتها طلقتك في الصميم ولن تستطيع الحياة بعد ان مزقها الرش » ..

فأحنيت رأسي في خجل ولم احر جوابا على الرغم من اني كنت متيقنا اشد اليقين من ان طلقتي كانت مسددة خير تسديد ولم تخطىء الهدف .

وحشونا بندقية الآغا كرة اخرى واعدناها الى موضعها ، ونمنا من جديد .. وحين افاق الاغا من نومه في الصباح كان الارنب يطبخ في الطنجرة ، ورائحته الزكية تملأ الغرفة .. وبدا على الاغا الارتياح لهذا الفطور الجميل .. وخيل لي ان حملة الصيد قد مرت بسلام ، حين جلسنا جميعا للفطور .

ولكن عمي ـ مع الاسف ـ تشجع اذ رأى سروره وارتياحه ، فلم يمسك نفسه عن ممازحتي قليلا لدى وضع الارنب على السفرة . واخذ يسرد مغامرتي وكيف قتلت سنديانة ..

وما ان قال عمي اية بندقية استعملت حتى توقف الاغا عن الاكل وظلت لقمته معلقة في الفضاء بين السفرة وبين فمه ، وغاص الدم في وجهه ، وصاح بي بصوت مخنوق ..

ـ كيف يا ملعون .. لقد اطلقت ! اطلقت بندقيتي !

فأجابه عمي ضاحكا :

ـ أي يا آغا .. اطلق واخطأ ..

فاستمر الاغا يصيح بي :

ـ يا كافر .. يا زنديق .. كان في البندقية ٢٥ ذهبة ، ٢٥ ليرة في فم البندقية ، بين الكبسونة والحشوة ..

وتجلت لنا حينئذ الحقيقة التي اعيت سكان المنطقة كلهم .. كانت بندقية الاغا كيسا له وجزدانا ومخبأ اثناء سفره .. وفهمت حينذاك كل شيء في لحظة واحدة .. لماذا لا يستعمل الاغا بندقيته ابدا .. وفهمت بالاخص اللبطة التي نلتها من رجعة البندقية على كتفي .. وكيف خيل لي ، حين خرجت الطلقة ، ان رشاشا من الذهب ينتشر في ضوء القمر ..

ولم يكن لي امل في عفو الاغا عن هذه الجريمة الشنعاء ، فأخذت انظر في اتجاه الباب ، معولا على الفرار منه والقاء نفسي في اول مستنقع اصادفه ، ادفن فيه مصيبتي .

ولكن صوت عمي اوقفني عما عولت عليه ، وامتزج به رنين ليرات ذهبية تتدحرج على الصينية . وقال عمي ضاحكا :

ـ ها ! ها ! الان فهمت لماذا كان الارنب عاسيا ، لا تخف يا علي ... الامر اهون مما تظن ..

وقال يخاطب الاغا :

ـ هذا الصبي صياد من الطبقة الاولى .. له مستقبل هائل .. هو الذي اصاب الارنب بطلقته .. واية طلقة .. ٢٥ ذهبة ..

وتوقف ابو احمد ، ليدع لنا مجال تخيل الموقف وتذوق طرافته ثم قال :

وهكذا ـ ولكم ان تصدقوني او لا ـ كانت طلقتي هي التي اصابت الارنب في الصميم .. وعثرنا على الليرات الواحدة تلو الاخرى ، ونحن نفصفص الارنب.. وكان في الليرات ريح البارود .. الا انها كانت سليمة غير منقوصة .

ـ كل الليرات يا ابو احمد ؟

ـ أي والله .. فقد كانت اضلاع الارنب محشوة حشوا بالذهب .. وانحشرت ليرتان في رأسه ..

ـ واستعدتم الليرات كلها ؟

ـ لا .. لا تتخنوها .. لقد نقص منها ليرة واحدة اقتطعها الاغا من حساب والدي بعد اخذ ورد طويل .

* * *

وكان المطر قد توقف واخذت الشمس تظهر من خلال الغيوم ، فخرجنا من الكوخ .. لنعود الى الصيد .

الكويت صباح محي الدين

صدر حديثا :

سقوط غرناطة

صفحة من صفحات النضال العربي
في الاندلس آخر ايام ملوك بني الاحمر

بقلم الشاعر الخالد
فوزي المعلوف

منشورات مكتبة الاندلس